

في ظلال القرآن: ولا تحسبنّ الله غافلاً عما يعمل الظالمون..



26 نوفمبر 2019

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا تَعْمَلُ الظَّالِمُونَ □ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (42) مُهْطِعِينَ مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ □ وَافْتَدَتْهُمْ هَوَاءُ (43) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَايَهُمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِيبَ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ □ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مَن قَبْلُ مَا لَكُمْ مِّن رَّوَالٍ (44) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (45) وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرَهُمْ لِيَتْرُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (46) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفًا وَعْدهُ زُسْلُهُ □ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (47) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ □ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاجِدِ الْقَهَّارِ (48) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّرِينَ فِي الْأَصْفَادِ (49) سَتَرَابِلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ (50) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ تَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ □ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (51) (إبراهيم).

من تراث الشهيد/ سيد قطب

لا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار، مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم، وأفتدتهم هواء ..

والرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يحسب الله غافلاً عما يعمل الظالمون. ولكن ظاهر الأمر يبدو هكذا لبعض من يرون الظالمين يتمتعون، ويسمع بوعيد الله، ثم لا يراه واقعا بهم في هذه الحياة الدنيا. فهذه الصيغة تكشف عن الأجل المضروب لأخذهم الأخذة الأخيرة، التي لا إمهال بعدها. ولا فكاك منها. أخذهم في اليوم العصيب الذي تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع، فتظل مفتوحة مبهوتة مذهولة، مأخوذة بالهول لا تطرف ولا تتحرك. ثم يرسم مشهدا للقوم في زحمة الهول.. مشهدهم مسرعين لا يلوون على شيء، ولا يلتفتون إلى شيء. رافعين رؤوسهم لا عن إرادة ولكنها مشدودة لا يملكون لها حراكا. يمتد بصرهم إلى ما يشاهدون من الرعب فلا يطرف ولا يرتد إليهم. وقلوبهم من الفزع خاوية خالية لا تضم شيئا يعونه أو يحفظونه أو يتذكرونه، فهي هواء خواء..

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه. حيث يقفون هذا الموقف، ويعانون هذا الرعب. الذي يرتسم من خلال المقاطع الأربعة مذهلا آخذا بهم كالطائر الصغير في مخالب الباشق الرعيب:

نما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعي رؤوسهم، لا يرتد إليهم طرفهم، وأفتدتهم هواء ..

فالسرعنة المهرولة المدفوعة، في الهيئة الشاحصة المكروهة المشدودة، مع القلب المفزع الطائر الخاوي من كل وعي ومن كل إدراك.. كلها تشي بالهول الذي تشخص فيه الأبصار..

هذا هو اليوم الذي يؤخرهم الله إليه، والذي ينتظرهم بعد الإمهال هناك. فأندر الناس أنه إذا جاء فلا اعتذار يومئذ ولا فكاك.. وهنا يرسم مشهدا آخر لليوم الرعيب المنظور:

وأندر الناس يوم يأتيهم العذاب، فيقول الذين ظلموا: ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل. أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال؟! وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم، وتبين لكم كيف فعلنا بهم، وضربنا لكم الأمثال؟ ..

نذرهم يوم يأتيهم ذلك العذاب المرسوم آتفا، فيتوجه الذين ظلموا يومئذ إلى الله بالرجاء، يقولون:

"ربنا" ..

الآن وقد كانوا يكفرون به من قبل ويجعلون له أنداا!

خرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك وتتبع الرسل ..

وهنا ينقلب السياق من الحكاية إلى الخطاب. كأنهم مائلون شاخصون يطلبون. وكأننا في الآخرة وقد انطوت الدنيا وما كان فيها. فما هو ذا الخطاب بوجه إليهم من الملأ الأعلى بالتبكيك والتأنيب، والتذكير بما فرط منهم في تلك الحياة:

ألم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال؟! ..

كيف ترون الآن؟! زلتم يا ترى أم لم تزولوا؟! ولقد قلتم قولتكم هذه وآثار الغابرين شاخسة أمامكم مثلا بارزا للظالمين ومصيرهم المحتوم:

سكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال ..

كان عجبيا أن تروا مساكن الظالمين أمامكم، خالية منهم، وأنتم فيها خلفاء، ثم تقسمون مع ذلك:

ما لكم من زوال !

عند هذا التبيكيت ينتهي المشهد، وتدرك أين صاروا، وماذا كان بعد الدعاء وخيبة الرجاء.

وإن هذا المثل ليتجدد في الحياة ويقع كل حين. فكم من طغاة يسكنون مساكن الطغاة الذين هلكوا من قبلهم. وربما يكونون قد هلكوا على أيديهم. ثم هم يطغون بعد ذلك ويتجبرون؛ ويسبسون حذوك النعل بالنعل سيرة الهالكين؛ فلا تهز وجدانهم تلك الآثار الباقية التي يسكنونها، والتي تتحدث عن تاريخ الهالكين، وتصور مصائرهم للناظرين. ثم يؤخذون إخذة الغابرين، ويلحقون بهم وتخلو منهم الديار بعد حين!

ثم يلتفت السياق بعد أن يسدل عليهم الستار هناك، إلى واقعهم الحاضر، وبشدة مكرهم بالرسول والمؤمنين، وتديبرهم الشر في كل نواحي الحياة. فيلقي في الروح أنهم مأخوذون إلى ذلك المصير، مهما يكن مكرهم من العنف والتدبير:

قد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم.. وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال ..

إن الله محيط بهم وبمكرهم، وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال، أثقل شيء وأصلب شيء، وأبعد شيء عن تصور التحرك والزوال. فإن مكرهم هذا ليس مجهولا وليس خافيا وليس بعيدا عن متناول القدرة. بل إنه لحاضر "عند الله" يفعل به كيفما يشاء.

فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله. إن الله عزيز ذو انتقام ..

بما لهذا المكر من أثر، وما يعوق تحقيق وعد الله لرسله بالنصر وأخذ الماكرين أخذ عزيز مقتدر:

إن الله عزيز ذو انتقام ..

لا يدع الظالم يفلت، ولا يدع الماكر ينجو.. وكلمة الانتقام هنا تلقي الظلم المناسب للظالم الماكر يستحق الانتقام، وهو بالقياس إلى الله تعالى، يعني تعذيبهم جزاء ظلمهم وجزاء مكرهم، تحقيقا لعدل الله في الجزاء.

وسيكون ذلك لا محالة:

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات ..

ولا ندري نحن كيف يتم هذا، ولا طبيعة الأرض الجديدة وطبيعة السماوات، ولا مكانها؛ ولكن النص يلقي ظلال القدرة القادرة التي تبدل الأرض وتبدل السماوات؛ في مقابل ذلك المكر الذي مهما اشتد فهو ضئيل عاجز حسير.

وفجأة نرى ذلك قد تحقق:

وبرزوا لله الواحد القهار ..

وأحسوا أنهم مكشوفون لا يستترهم ساتر، ولا يقيهم واق. ليسوا في دورهم وليسوا في قبورهم. إنما هم في العراء أمام الواحد القهار.. ولفظة "القهار" هنا تشترك في ظل التهديد بالقوة القاهرة التي لا يقف لها كيد الجابرة. وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال.

م ها نحن أولاء أمام مشهد من مشاهد العذاب العنيف القاسي المذل، يناسب ذلك المكر وذلك الجبروت:

يترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار ..

فمشهد المجرمين: اثنين اثنين مقرنين في الوثاق، يمرون صفا وراء صف.. مشهد مذل كذلك على قدرة القهار. ويضاف إلى قرينهم في الوثاق أن سرايلهم وثيابهم من مادة شديدة القابلية للإلتهاب، وهي في ذات الوقت قذرة سوداء.. "من قطران" .. ففيها الذل والتحقير، وفيها الإحياء بشدة الاشتعال بمجرد قربهم من النار!

وتغشى وجوههم النار ..

فهو مشهد العذاب المذل المتلطي المشتعل جزاء المكر والاستكبار..

يجزي الله كل نفس ما كسبت. إن الله سريع الحساب ..

ولقد كسبوا المكر والظلم فجزاؤهم القهر والذل. إن الله سريع الحساب. فالسرعة في الحساب هنا تناسب المكر والتدبير الذي كانوا يحسبونه بحميمهم وبخفيهم، ويعوق انتصار أحد عليهم. فها هم أولاء يجزون ما كسبوا ذلا وألما وسرعة حساب!